المقتطف ٧

الجزء السابع من السنة العشرين

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٦ الموافق ٢٠ محرم سنة ١٣١٤

واقعة فركة وسواردة

الحرب على ما فيها من القسوة الوحشيَّة وما يتبعها من الخراب والدمار كانت ولم تزل من اقوى اسباب العمران وانجع الوسائل لنزع الشرور والمظالم . ولا يفلُّ الحديدَ الاَّ الحديد ولقد احسن من قال

وانى لآبى الشرَّ حتى اذا ابى يجنَّبُ بيتي قلت للشرّ مرحبا
وأركب ظهر الامر حتى يلين لي اذا لم اجد الاَّ عَلَى الشرّ مركبا

وهٰذا شأن الحكومة المصريَّة مع المهدي وخليفتهِ فانهما ركبا متن الغواية وخربا بلادًا ابتاعتها الديار المصرية بدماء ابنائها وأبيا الاَّ مناصبتها الشر ومهاجمة تخومها عامًا بعد عام فرأت الصبر عليهما عجزًا والتأني تفريطًا فأقرَّت في الثالث عشر من شهر مارس (اذار) الماضي على فتح السودان وتخليصهِ من ظلم الخليفة ورجالهِ . وما من احد يطالع الفصول التي خصصناها من كتاب سلاتين عمَّا آلت اليهِ حالة تلك البلاد في عهد المهدي وخليفتهِ الاَّ ويمدح الحكومة المصرية على ما عزمت عليهِ ويدعو لها بالنصر القريب

ولقد اجمع العارفون باحوال السودان ان سوس الفساد قد نخرهُ والحمَس الدينيَّ الذي كان اقوى حامل لاهلهِ على الانضواء الى لواء المهدوية قد تقلَّص ظلهُ الآن اذ رأى السودانيون من المهدي وخليفتهِ ورجالهم ذئابًا اطالس في ثياب الحملان . ولكن لم يخطر على بال احد ان ابطال الدراويش الذين شهدت لهم وقائعهم الكثيرة بالبسالة والصبر في مواقع القتال تبيد منهم المئات والالوف قبل ان يقتل من الجنود المصرية بضعة عشر رجلاً كما حدث في واقعة فركة الاخيرة

وقد رأينا ان نثبت في المقتطف تفصيل هذه الواقعة تاريخاً لبسالة الجنود المصرية ومهارة قوادها في فنون الحرب لان اعظم نصر ما يؤتاهُ الجيش باقل ما يكون من اراقة الدماء. واعتمدنا في الوصف على ما كتب بهِ الينا مكاتبنا المرافق الحملة وما جاء في تقارير روتر الخصوصيَّة. قال المكاتب: وصلت الى عكاشة فرأيت الجيش يتأهب للقيام منها ولكن لم يكن احد يعلم الغرض المقصود لان السردار كتم ما عزم عليهِ فان القائد الحازم وقد سعيت كثيراً لاعرف الخطة التي تسير فيها الجنود او الوقت الذي تسير فيهِ فلم يجدِ سعيي نفعاً وكنت كلما سألت رجلاً من الذين يعوَّل عليهم يجيبني اننا على تمام الاستعداد للسير

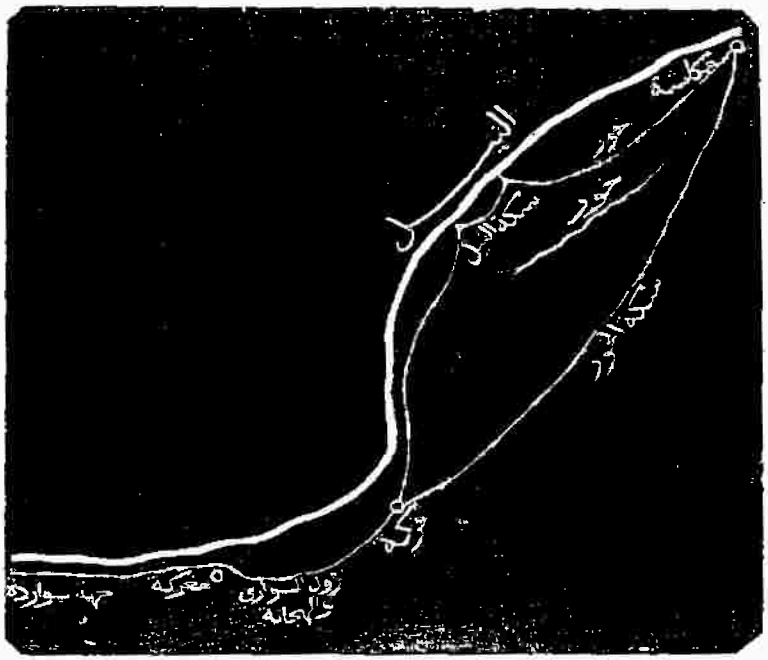

متى أُمرنا بهِ ولكنني لا اعلم إلى اين مسيرنا. اما كبار القواد فكانوا يعلمون كل شيء وكانت ادارة المخابرات عالمة بحركات الدراويش وسكناتهم ومكان كل امير من امرائهم ورسمت خريطة في حلفا وزعتها عليهم فاغنتهم عن الدليل. وفي الرابع والخامس من الشهر (يونيو) اجتمعت قوَّة الجيش المصري بين عكاشة وعكة. وصباح اليوم السادس وصل السردار واركان حربهِ إلى عكاشة وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اخذت الالوية تجتمع في خور عكاشة المؤدي الى فركة ثم تقدَّم السردار واستعرض الجيش وسار في مقدمتهِ وتبعتهُ

الجنود على هذا الترتيب اللواء الاول يتلوهُ بطرية طوبجيَّة ثم اللواء الثاني يتلوهُ بطرية طوبجيَّة ايضاً ثم اللواء الثالث. فسرنا في الخور كما يرى في الشكل الاول قاصدين فركة مقرَّ جيوش الدراويش ولم يرافق جيشنا غير البغال المحملة المبرة (الجبخانة) وكان كل عسكري يحمل ١٥٠ طلقاً من الجبخانة وما يكفيهِ يومين من البقسماط واعدَّت قافلة تحمل الطعام من عكاشة في صبيحة اليوم التالي

ويسار من عكاشة الى فركة في طريقين احداهما في الخور وطولها ١٥ ميلاً والاخرى على شاطىء النيل وطولها ١٨ ميلاً فاختار السردار سكة النيل وكان قد امر السواري والمجانة ان تقوم من عكاشة في المساء وتسير في سكة الخور وتنزل بين فركة ومفركة

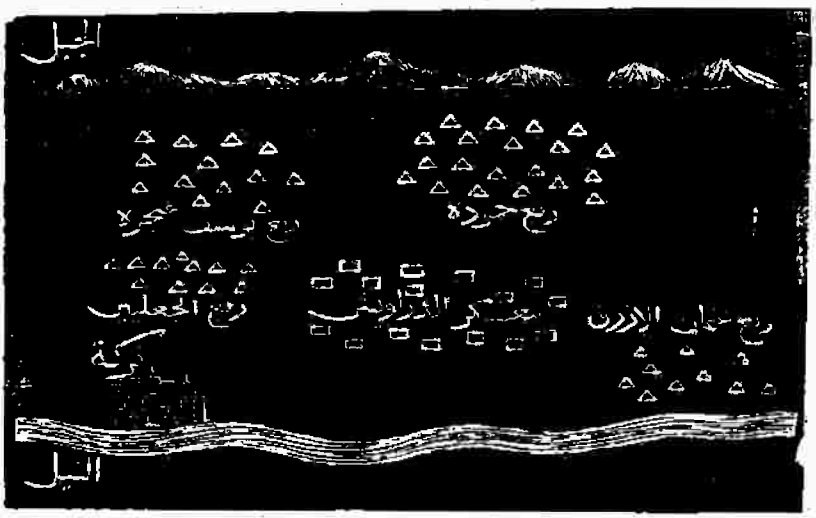

وتقطع خط الرجعة على الدراويش وسارت الجنود الساعة ٢½ ٣ بعد الظهر في الخور فوصلت منهُ الى النيل بعد مسير ساعتين واستراحت هناك هنيهة وشرب الجنود وملأوا زمازمهم وعادوا الى المسير ولما غابت الشمس صاروا يشون الهوينا حتى وصلوا الى بلدة تبعد نحو ستة اميال عن فركة فباتوا هناك الى الساعة ٢½ ٣ بعد نصف الليل ثم سروا ليلاً فوصلوا الى فركة الساعة الرابعة والدقيقة ٤٥ من صباح اليوم السابع من الشهر وكأن الناظر اليهم ينشد قول الرضي

وركب سرى والليل ملق رواقهُ على كل مغبرّ المطالع قاتم
حدوا عزمات ضاعت الارض بينها فصار سراهم في صدور العزائم

تريهم نجوم الليل ما يبتغونهُ على عاتق الشعرى وهام النعائمِ
وتحطى على الارض الدجى فكانما تفتش عن اعلامها بالمناسمِ

ولم يكن الدراويش يعلمون ان الجنود المصرية زاحفة عليهم فسارت طليعة السواري لاستطلاع امرهم حتى صارت على مقربة من معسكرهم فرأتهم دورية الدراويش فاطلقت الرصاص عليهم. فلما سمع السردار صوت الرصاص شكَّل القوة وتقدَّم مسرعاً وابتدأت الطوبجية باطلاق المدافع على معسكر الدراويش فهبوا من رقادهم مذعورين ووقفوا في اماكنهم

وقبل ان ابتدئ بوصف المعركة اشرح للقراء الكرام كيفية تقسيم معسكر الدراويش ومركز فركة حتى يسهل عليهم تصوُّر القتال بلا وصف كثير فاقول

ان فركة بلدة على شاطيء النيل فيها كثير من شجر النخل والى الشرق منها جبال تبعد عن النيل مسيرة نصف ساعة (انظر الرسم الثاني) وكان عدد الدراويش المعسكرين فيها اكثر من الفي مقاتل من اشد رجال الخليفة بأساً واثبتهم جناناً اختبروا الحروب ايام المهدي وتعودوا القتال وملاقاة الابطال بقيادة اشهر الامراء الذين يشهد لهم تاريخ السودان بالبسالة والاقدام. وقد وضع الخليفة وامير دنقلة انكالهما عليهم واتخذاهم حصناً حصيناً لرد جنودنا وتمزيق شمل جيوشنا. وقد قسم الدراويش معسكرهم إلى اربعة ارباع الربع الاول تحت امرة عثمان الازرق الامير العمومي وفيهِ ٤٠٠ مقاتل من الدناقلة والبقارة. والربع الثاني تحت امرة حمودة البقاري وفيهِ ٨٠٠ مقاتل من البقارة. والربع الثالث تحت امرة ولد الامين ابن عبد الحليم الجعلي وفيهِ ٣٠٠ مقاتل من الجعليين. والربع الرابع تحت امرة يوسف عنجرة التعايشي وفيهِ نحو ٦٠٠ مقاتل من السودانيين والبقارة وجميعهم بالاسلحة النارية

قلت ان عساكرنا تقدمت لمحاربة الدراويش في الساعة الخامسة صباحاً وبيان ذلك ان اللواء الاول تقدَّم من جهة الجبل فقابل ربع يوسف عنجرة وربع حمودة. واللواء الثاني تقدَّم الى جهة معسكر الدراويش وربع الجعلية. واللواء الثالث تقدم عن يمينهِ فلما هب الدراويش من رقادهم احتلوا مراكزهم حالاً في جهة الجبل وعلى شاطيء النيل وتفرقت فرسانهم وعددها لا يقل عن ٣٠٠ فارس في جهة الجبل وعلى شاطيء النيل ايضاً. وابتدأت جنودنا باطلاق المدافع والبنادق وجاوبهم الدراويش فما كنت أرى الاَّ نار البارود ولا اسمع الاَّ صوت الرصاص وقصف المدافع وجعلت العساكر تتقدم إلى مراكز الدراويش مسرعة وثبت الدراويش في اماكنهم ثبات الابطال ولكن بدت عليهم علامات الحيرة والاندهال كمن لا يدري ماذا يفعل. وبعد قتال يشيب الاطفال مدة ساعة ونصف خارت عزائمهم وعلموا انهم لا يستطيعون

صبراً على رصاص يشوي وطعن يصمي فابتدأوا يفرون وهرب بعضهم إلى الجبال و بعضهم الى شاطئ النيل وكانت عساكرنا قد سدّت عليهم ابواب الفرار وقطعت عليهم خط الرجعة من كل جهة . والقى كثيرون منهم انفسهم في النيل ليعبروا إلى الضفة الغربيّة ولكن عرب الكبايش الموالين للحكومة كانوا راصدين لهم هناك فاهلكوا بعضاً منهم . و بعد ثلاث ساعات انقطع اطلاق النار واستولت العساكر على معسكر الدراويش كلهِ

وقد كنت اجول في هذه المعركة من مكان الى مكان على قدر ما سمحت بهِ الاحوال لأرى ما يجري مرأى العين . فبينما انا التفت الى اليمين سمعت طنيناً بجانب اذني فالتفت واذا رصاصة وقعت على بعد قيراط عني . وانتقلت ووقفت بجانب بكباشي انكليزي كان راكباً على حصانهِ فاصابت حصانهُ رصاصة قتلتهُ . غير ان دم الانسان يهيج فيهِ ساعة المعركة فلا يبالي بالرصاص وسقوط القتلى وانين الجرحى ولكن الساعة الّتي تنفث الاكباد وترتعد منها الفرائص هي ساعة الدخول الى ساحة الوغى بعد انتهاء القتال ورجوع الانسان الى نفسهِ وسكون جأشهِ وسماعهِ انين المائتين وزفرات الجرحى ورؤيتهِ اشلاء القتلى و بركهم النجيع الى غير ذلك من المناظر المكربة الّتي يعجز القلم عن وصفها وتعاف النفس تذكر صورتها لشدة ما يعتريها من الالم والانقباض . ولو وصفت للقراء الكرام بعض ما رأيت من هذا القبيل لسالت آماقهم حزناً وتوجعوا جزعاً . وما راء كمن سمع

اما الذين لم يفروا الى الجبل او الى النيل فتقهقروا جنو باً وقابلتهم سواريناوهجمانا بالقرب من معركة فقتلت نحو ٢٥٠ رجلاً منهم من جملتهم الامير مرغني سوار الذهب . وجرح عثمان الازرق في هذهِ الواقعة لكنهُ طرح نفسهُ في النيل وعبر الى الضفة الغربيّة سباحة . ولقد غنمت عساكرنا في هذهِ الواقعة اكثر من ١٠٠ بندقيّة من بنادق رمنتون ونحو ١٠٠٠ حربة وسيف وطبولاً كثيرة وجمالاً وخيلاً لا تقل عن مئة واما بقيّة الخيل فقتل منها ما قتل وجرح ما جرح ولم يعد يصلح لشيء وغنمت ايضاً ٥٠٠ راس من الماشية واكثر من ٢٠٠ حمار وعدة مراكب ووجدت في بيت المال نحو ١٦٠ اردبّاً من الذرة واسرت نحو ٢٠٠ رجل و١٣٠ من النساء والاولاد

و بعد ظهر يوم الواقعة بثلاث ساعات سار الامير الآي مردخ بك بالفرسان والهجانة في اثر الدراويش الفارين من معركة فركة وما زال يطاردهم حتى بلغوا سواردة . وقبل وصولهم اليها علم الدراويش فيها بما اصاب قومهم في فركة ففرّ بعضهم بعيالهم منها وعبروا النيل الى الضفة الغربيّة ونجوا بانفسهم ومن جملتهم عثمان الازرق فانهُ فرّ من معركة فركة واتى سواردة

واخذ عائلتهُ منها وعبر بها الى الضفة الغربيَّة في مقدمة الفارّين. فلما وصل مردخ بك اليها اخذها بلا مقاومة لان الرجال الذين بقوا فيها كانوا قلالاً واستحوذ على ما فيها من المايرة والمؤن

وكتب الينا في الرابع عشر من الشهر يقول "ان الذين دفنوا حتى اليوم من قتلى الدراويش بلغوا الفاً ومئة قتيل عدا الذين غرقوا في النيل والذين جثثهم لا تزال مطروحة في الجبال والاخوار وجرحاهم نحو مئة واسراهم اكثر من مئتين من الرجال عدا النساء والاولاد". وقتل من الجنود المصريَّة اثنان وعشرون وجرح ستة وثمانون

وقد كان عدد المقاتلة من الدراويش ثلثة آلاف مقاتل منهم الفان واكثر في فركة والباقون في سواردة ومعركة شرقاً وغرباً. وغني عن البيان ان القواد العظام هم الذين يحرزون اعظم النظر باقل خسارة من الرجال ولو راجعنا تفاصيل المعارك التي احرز فيها القواد العظام النصر على الاعداء وقدرنا عدد الذين خسروهم فيها من الرجال لعددنا معركة فركة من جملتها وحكمنا ان السردار وسائر قواد جيشهِ فعلوا افعال القواد العظام وفازوا الفوز المبين على نخبة رجال السودان وامرائهم وابطالهم بخسارة لا تكاد تذكر. وقد قاتل الدراويش في هذهِ الموقعة مستقتلين وهان عليهم الموت حتى كانوا يثبتون امام الجنود المصرية وهم يعلمون انهم هالكون لا محالة ويقي نحو ثمانين منهم يقاتلون من منزل واحد وابوا التسليم حتى قتلوا عن آخرهم

وعسى ان تكون هذهِ الواقعة خاتمة الوقائع فيجسر اهالي السودان على المجاهرة بمخالفة الخليفة ومناوأتهِ والعود الى حمى الحكومة المصرية فانهُ اذا رأى ذلك منهم انحلَّت عزائمهُ وبادر الى الاتفاق مع الحكومة المصرية على ما تحجب بهِ الدماء وتضمن راحة العباد

تتويج قياصرة الروس

كل نظام ولَّدتهُ الايام ونحَّصتهُ احوال الزمان فهو لازم في محلهِ واجب على الذين ارتبطوا بهِ لا يحسن نزعهُ ولا فكهُ دفعةً واحدةً. ولكن ذلك لا يكفل لهُ الدوام بل لا بد من ان يخضع لتقلبات الايام مثل كل متغير. ومن هذا القبيل نظام الدول وقيام الملوك فانهُ عريق في المجتمع الانساني ابتدأ منذ الوف من السنين لا بقوَّة قاهرة فرضتهُ على الناس فرضاً بل نشأ تبعاً لغريزة فطريَّة ونماموًّا طبيعيًّا. وقد انحلَّت عراهُ الآن من بعض البلدان ولكنهُ لم يزل راسخاً في غيرها. ولا يظهر ان الممالك التي طرحت نير الملوك عن عواتقها اصلح حالاً وارفع شأناً من جاراتها الجارية على خطة السلف. فان كانت المساواة بين الناس امراً